يستند إلى قاعدة المسيحية الارثوذكسية، التي كانت تتشدد روسيا في التمسك بها، حين كانت تعارض معارضة كبرى قيام مثل هذا الوطن. والكثير من الروس كانوا يزورون الاماكن المقدسة في فلسطين سيرا على الأقدام كدليل على شدّة تديّنهم وتمسكهم بالتقاليد الارثوذكسية. ولذلك، كانت الحكومة القيصرية تقاوم دوما، اي مشروع يرمي إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين. ولا ريب ان هذه المقاومة كانت عاملا في تأخير صدور تصريح بلفور إلى ما بعد انهيار الحكم القيصري مباشرة. وهذا ما دفع المؤرخ العالمي الكبير توينبي إلى القول في كتابه «دراسة التاريخ»: «ان انهيار حكم آل رومانوف الامبراطوري الروسي، قد ازال بالفعل حماية اخرى عن العرب الفلسطينيين»(٣٩).

والواقع ان بذور الصهيونية السياسية وجدت في روسيا بعد عملية اغتيال القيصر الكسندر الثاني ١٨٨١ على أيدي اليهود. وعلى أثر موجة الاضطهاد والملاحقات برزت حركة محبّي صهيون Chibbath Zion، حيث اعترف رسميا بها عام ١٨٩٠ باسم جمعية دعم الزراعيين والحرفيين اليهود في فلسطين وسوريا (٤٠). وهؤلاء اليهود المهاجرون من روسيا هم الذين اسسوا مستعمرة ريشون لزيون Richon le Zion عام ١٨٨٢ في فلسطين. ثم كان لحركة «البوند» الروسية دورها في الهجرة إلى فلسطين. لكن هذه الهجرة لم تحقق أهدافها، وخصوصا بعد انتصار الثورة الاشتراكية بقيادة لينين عام ١٩١٧، حيث كان نشر الفكر الشيوعي في المنطقة أحد المهمات الاساسية لها. بيد ان النتيجة كانت عكس ذلك مما جعل المعادين للاشتراكية يستغلون هذه الثغرة للتهجم على الثورة وقيادتها، ووصلت القضية عند البعض منهم إلى وضع الصهيونية والشيوعية في كفتي الميزان، كما كانت الدوائر الامبريالية تأخذ على عاتقها نفقة طباعة هذه الدراسات التي تسعى لاخفاء الطابع الاستعماري للصهيونية والهجوم على المبادىء الاشتراكية في الفترة التي كانت فيها ثورة اكتوبر طفلة في المهد. كما لعبت كراهية اليهود دورا مهما في بعض الاحيان في مساعدة الصهيونية، ونذكر على سبيل المثال ما رواه هرتسل عند لقائه مع بليف Pléve وزير داخلية روسيا من أن بليف قال له «ليس أدعى لاغتباطي من أن يرحل اليهود، وكل اليهود عن روسيا، فإن كانت الصهيونية هي الوسيلة الفعالة لتطهير بلادي من اليهود فأنا على استعداد لتقديم كل مساعدة»(٤١).

موقف البابوية

لم يكن احد يتوقع ان يتفوه احد من البابوات، وفي اي عصر، بكلمة محبّبة ومشجعة للصهيونية؛ خاصة وأنهم أدرى بدسائس الصهيونية وألاعيبها وحقدها مما يخالف جوهر المسيحية وأهدافها. ونظرا للمركز المهم الذي يشغله البابا والتأثير الذي يحظى به في العالم، لم يتردد قادة الصهيونية في الاتصال به لمباركة مشاريعهم الخاصة بعاصمة الديانات السماوية ومهدها، فلسطين. وعلى هذا الاساس، كان لقاء تيودور هرتسل مع البابا بيوس العاشر عام ١٩٠٣، من أجل كلمة واحدة يعلن فيها البابا عدم تنكّره للصهيونية لتستطيع كسب مسيحيي العالم إلى جانبها. إلا أن جواب البابا لم يكن مشجعا، بل جاء يحمل تهديدا في مضمونه بتعميد اليهود في كنائس فلسطين، مخاطبا هرتسل بقوله «صحيح ان ليس بوسعنا منع اليهود من التوجه إلى القدس، ولكن ليس لنا ان نشجعهم على ذلك. إن أرض القدس مقدسة بحياة المسيح، واليهود لم يعترفوا بمسيحنا. ولذلك لا نستطيع الاعتراف بالشعب اليهودي، ولا يمكننا تأييد فكرة وجودكم في فلسطين مطلقا، فإذا ما أقمتم هناك سنعلم الكنائس والكهنة فيها بان يعمدوكم جميعاً» (٤٢).

وعلى الرغم من فشل هرتسل في اقناع البابا بيوس العاشر، فإن رفاقه الاوفياء تابعوا طريقه،